إسهامات علماء المسلمين في دراسة الأديان

الجاحظ أنموذَجًا

Contributions of scholars to the study of religions

https://aif-doi.org/AJHSS/096401

أ.د عرفات أحمد مقبل *
أ. عهود أبو ملحة

* استاذ علم الأديان بجامعة الملك خالد

ملخَّص

هدف البحث إلى إبراز إسهامات الجاحظ في عِلم الأدْيان، وبيان منهجه في الرَّد على أتْباع الأدْيان، والمصادر الأساسيَّة التي اعتَمَد عليها في دراسة الأدْيان، ولتَحقيق أهداف الدراسة اعْتُمِدَت المنهج الوصفي والاستقرائي.

وقد جاء البحث في ثلاثة مباحث وخاتمة، تضمنت أهم النتائج التي توصل اليها البحث: ومن أهمِّها: يُعَدُّ القرآن الكريم أوَّلَ مَن تحدَّث بشكلٍ مُفَصَّلٍ عن الأدْيان والعقائد والمِلَل والنِّحَل، وكشَفَ مدى زَيْفها وبُطلانها، ومن أبرز مصادر الجاحظ في دراسة الأدْيان - ولا سيَّما الردُّ على النَّصارى- العهد القديم، والتوراة، والكتاب المقدَّس، من مميِّزات منهج الجاحظ في الرد على النصارى تهذيب وتقويم مسائل النصارى ضدَّ الإسْلام قبل عَرْضها، إجابة الجاحظ على كل مسألة من مسائل النصارى؛ وذلك لإفْحامهم وإلْزامهم الحُجَّة.

الكلمات المفتاحية: مناهج – اسهامات – الجاحظ – الأديان.

Abstract

This research aims to highlight the contributions of Al-Jahiz in the science of religions, and to explain his method in responding to followers of religions, and the main sources that he relied on in the study of religions.

This research came in three sections and a conclusion, which included the findings of the research: the most important of which are: the response to the Christians - the Old Testament, the Torah, and the Bible, Al-Jahiz's approach to responding to the Christians and dissolving and evaluating the issues of the text on Islam before presenting them, Al-Jahiz's answer to issues Christian issues; In order to confuse them and force them to the argument.

Keywords: Curricula - Contributions - Al-Jahiz - Religions.

ISSN : 2410-1818

المقدمة

الحمدُ لله رب العالَمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلَين سيدنا محمَّد، وعلى آله وأصحابه والتابعين بإحسان إلى يوم الدين، أما بعدُ:

قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [1].

كان لعلماء المسلمين منذُ العصور الأُولى دورٌ أساسيٌّ ورائدٌ في جميع مجالات العلوم والمعارف، ومن هذه العلوم دراسةُ الأدْيان ومقارنتُها، فلقد انطلَقوا من فكرة أن تعدُّد الأدْيان واختلاف العقائد من السُّنَن الإلهيَّة يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [2].

ولأهمية دراسة الأدْيان في التواصُل والحوار مع الآخَر، بالإضافة إلى أن الأدْيان تُمثِّل المكوِّن الرئيس في الإرْث الإنْساني والحَضاري؛ فقد شُغِل المسلمون بعِلم الأدْيان، وخَصَّصوا له مساحةً واسعةً، وقاموا بوضْع القواعد المنهجيَّة لهذا العلم، وقد انصبَّ اهتمامُ علماء المسلمين على الديانَتَين اليهودية والنصرانية، والسبب في ذلك أن الدولة الإسلاميَّة أخذَت بالاتِّساع والانتشار في كل مكان؛ لذلك كانت تُشكل غالبيَّة مُسلمة، وأقليَّات يهودية ونصرانية.

ويُعَدُّ الجاحظُ من أبرز علماء المسلمين الذين كان لهم اهتمامٌ بدراسة الأدْيان، وحماية الدين الإسلامي، وذَب الشُّبُهات المُثارة ضدَّه، وأيضًا كانت له مشاركةٌ فاعلةٌ في مَيْدان دراسة الأدْيان، فكان له مصنَّف مميَّز وفريد وهو رسالة "الرد على النصارى" الذي اهتمَّ به عددٌ كبيرٌ من الباحثين والمفكِّرين.

وفي ضوء ذلك جاء هذا البحث الموسوم بـ: "إسهامات علماء المسلمين في دراسة الأدْيان الجاحظ أُنموذَجًا".

وقدِ اقتضَتْ طبيعةُ البحث أن يأتيَ بناؤه من: مقدمة، وتمهيد وثلاثة مباحث، وخاتمة نُبيِّن فيها أهم النتائج.

---

[1] سورة المجادلة، الآية 11.

[2] سورة هود، الآية 118.

ISSN : 2410-1818

التمهيد

اسمه: هو أبو عُثمان عَمْرو بن بحر بن محبوب الكِناني بالولاء اللَّيْثي المعروف بالجاحظ البَصري العالِم المشهور[3]، وقد اشتَهَر بلقَب الجاحظ بسبب بُروز حَدَقَتَيْه[4].

ولادته: وُلِد الجاحظُ في نصف القرن الثاني للهجرة؛ أي: قبل سنة 160هـ، ويُرْوى عنه أنه قال: "أنا أسنُّ من أبي نُواس بسَنة، وُلِدتُ أولَ سنة خمسين ووُلِدَ في آخِرها"[5].

كان الجاحظُ في بداياته يَعيش حياةً بسيطةً؛ فقد نشأ في طبقةٍ اجتماعيةٍ فقيرةٍ مُكتسِبًا قوتَه من عملِ يدَيْه، ورغم ذلك فهو لم يترُك العلم والمطالَعة، فكان يعمَل ويتعلَّم في آنٍ واحدٍ، وكان يحضُر الدروسَ في المسجد، ثمَّ اتَّصلَ بالشيوخ والأئمَّة آنذاك، وأخَذَ عنهم، كما خالَطَ أعلامَ الترجمة والكتابة، وقرأ ما تيسَّرَ له من الكُتُب المترجَمة أيامَ المنصور والرشيد والبرامكة والمأمون، ومن الجدير بالذِّكر أنَّ المكتبات العامَّة لم تكُنْ متوفِّرة في تلك الحِقْبة؛ أي: في أواخر القرن الثاني للهجرة، كما كانت الكُتُب نادرةً وغاليةً جدًّا، فلم تكُن إمكانيَّات الجاحظ الماديَّة تَسمَح له بشِرائها؛ لذا كان يحصُل عليها عن طريق أساتذته وأصْدقائه الذين كانوا يَضَعون مكتَباتهم تحتَ تصرُّفه؛ ولهذا اشتَمَلَت ثقافةُ الجاحظ على كافَّة العلوم المعروفة في عَصْره، فدرَس المنطقَ والفلسفةَ والرياضياتِ والطبيعيَّاتِ والسياسةَ والأخلاقَ والفِراسةَ، وقد أبدَعَ فيها جميعِها، وتكوَّنَت لدَيْه ثقافةٌ متنوعةٌ وغزيرةٌ، وحين ذاك انتقَل إلى بغْدادَ ليزيدَ من معرفته واطِّلاعه، ثمَّ اتَّصلَ فيها بالكبار من رجال الدين وعلماء اللُّغة، وقد عُدَّ الجاحظُ من أغزَر المؤلِّفين إنْتاجًا، فكتَبَ عن الأدب، والشِّعر والدِّيانات والعقائد، والإمامة والنُّبوة، والمذاهب الفلسفيَّة، وبحَثَ في السياسة والاقتصاد والأخْلاق وطبائع الأشياء، وتكلَّم عن العصبيَّة وتأثير البيئة، ونظَرَ في العلوم التاريخيَّة، والجغرافيَّة، والطبيعة، فكتَبَ في المُدُن والأمصار، والمعادن، وجواهر الأرض، والكيمياء، والنبات والحيوان، والطِّب والفَلَك[6].

وقد عاش الجاحظ قُرابةَ المائة عام، وكان العصرُ الذي عاشَ به عصرَ ازدهارٍ لكافَّة العلوم العربيَّة والإسلاميَّة؛ فقد تبوَّأت اللغة العربيَّة مكانةً رفيعةً في تلك الحِقْبة، كما نشِطَت حركةُ الترجمة

---

[3] ابن خلكان، أحمد بن محمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربلي ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت د. ت (3 / 507).

[4] فوزي عطوي، الجاحظ دائرة معارف عصره، دار الفكر العربي، بيروت، ط2، 1998م، ص12.

[5] ياقوت الحموي، معجم الأدباء،دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط،1993م،(16 / 75).

[6] رضا أماني، يسرا شادمان (2012)، "دراسة آراء الجاحظ حول الشعر ونقده"، دراسات النقد والترجمة في اللغة العربية وآدابها، العدد 3، ص27، 28.

ISSN : 2410-1818

والنَّقْل عن الثقافات الأجنبيَّة، وقد شهِدت الدولةُ الإسلاميَّةُ أيضًا نهضةً ورُقيًّا في كافَّة ميادين الحياة، ويعودُ الفضلُ في ذلك التقدُّم والازْدِهار للخلفاء والوزراء، كما انتشَرَت الأسواقُ الأدبيَّةُ التي كانت تُقام فيها حَلقات الشِّعر ويُعرَض فيها كلُّ جديدٍ في اللغة والأدب مثل سوق المِرْبَد، ولقد كان الجاحظ ذكيًّا جدًّا، وصبورًا على طلَبِ العِلم، وقد تتلمَذَ على أيْدي فُحول العلم والأدب حينذاك؛ فقد أخذَ اللغةَ والأدبَ عن الأصْمَعي، وأبي عُبَيدة، وأبي يَزيد الأنصاري، والنحو عن الأخْفَش، والحديث عن حجَّاج بن محمَّد، وأبي يوسف صاحب أبي حَنيفة، ثمَّ تثقَّف ثقافةَ الاعتزال، وكان أهَم أُستاذ له في ذلك النظَّام، فكان المعتزِلة يَهتَمُّون بالاطِّلاع على الدِّيانات الأخرى ومعرفتها جيدًا؛ لأنَّهم جَعَلوا من أنفُسهم دُعاةً للإسْلام، وكانوا يَعتقدون أنَّ عليهم أن يَكونوا على معرفةٍ تامَّةٍ بدينهم وبالدِّيانات الأُخرى، فدرَسوا الفلسفة اليونانية؛ لأنَّ أعْداءَهم كانوا قدِ اتَّخَذوها وسيلةً للدَّعوة إلى دينهم؛ لذا درَسوا ثقافةَ أرسطو وما فيها عن علم الحيوان، وصَبَغوها بطابَعهم الديني، وكان أيضًا شديدَ الوَلَع بالقراءة والمطالَعة، حتى إنَّه كان يَستأجر دكاكين الورَّاقين، ويَبيت فيها للقراءة والدراسة، وقد اندمَج في الحياة الواقعيَّة، واستفادَ منها، وتنوَّعت الموضوعاتُ التي درَسها وكتَبَ فيها، ومنها الحيوانات والنباتات، وقد كانَ لاندماج الجاحظ في المجتمَع، واختلاطِه بكافَّة فئاته، ومُجالَسته للأُدباء والشُّعراء، والملوك والأُمراء، الأثرُ الواضحُ في تَنْمية معرفته، وزيادة تَجاربه.

ومما ساعَدَ الجاحظَ أيضًا أنه عاش في العصر العباسي الذي امتاز بنَزْعته العقليَّة في مختلِف الميادين، والتي قامت على تحكيم العقل في الأُمور مثل: أُسطورة، أو قول مأثور، أو عقيدة، أو حتى حقيقة، وتقبُّل ما قد يصِل إليه العقل، حتى وإن خالَفَ هذا ظَنَّه أو اعتقادَه، وكان من الطبيعي أن يَتأثَّر الجاحظُ بهذه النَّزعة، خاصَّةً مع قابليَّته الطبيعيَّة المُهَيَّأة لذلك نتيجةً للظروف البيئيَّة التي عاشَها؛ فقد كان كثيرَ المطالَعة والقراءة، محبًّا للاطِّلاع على كل علمٍ، فلم يكُن يقَع بين يدَيْه كتابٌ إلَّا قَرأه[7].

مؤلَّفاته: للجاحظ العديدُ من الكتُب والرسائل من أبرزها: كتاب الحيوان، البيان والتبيين، وكتاب البُخلاء، كتاب مسائل القرآن، كتاب فضيلة المعتزِلة، كتاب الإمامة على مذهب الشيعة، كتاب العُثمانيَّة، كتاب الرد على النصارى[8] وغيرها الكثير، أما رسائله فهي كثيرةٌ وموضوعاتُها متنوعةٌ منها: رسائل في موضوع الأخلاق وهي ثلاث رسائل: (كتمان السر وحفظ اللسان)، و(الحاسد والمحسود)، و(النيل والتنبل وذم الكبر)، رسائل في موضوع الفقه وهي: (الفُتيا)، و(مدح النبيذ وصفة أهله)، و(الشارب والمشروب)، رسائل في الأدب والبلاغة وهي: (البلاغة والإيجاز)، و(تفضيل النطق على

[7] كامل عويضة، الجاحظ – الشاعر الأديب الفيلسوف، بيروت: دار الكتب العلمية، ص5، 6، 7، 23 بتصرُّف.

[8] معجم الأدباء، مرجع سابق،(16 / 107).

ISSN : 2410-1818

الصمت)، و(صناعة القوَّاد)، بالإضافة إلى الرسائل التي كان موضوعها شخصيًّا وهي ستُّ رسائل: (الجد والهَزل)، و(فصل ما بين العداوة والحسد)، و(رسالة إلى أبي الفرج بن نجاح الكاتب)، و(المودة والخلطة)، و(استنجاز الوعد)، و(التربيع والتدوير).

وفاته: استمَرَّ الجاحظ في التأليف والانْكِباب على العلم، والتنَقُّل بين بغداد والبصرة إلى أن أُصيب بمرض الفالج، وعندما اشتدَّت عليه وَطْأَةُ المرض استقَرَّ في البصرة، ولَزِم بيتَه، وبَقيَ مَشغولًا في الكتابة والتأليف، واستمَرَّ في الإنتاج والإبداع[9].

بَقيَ الجاحظُ على هذا الحال من الألم والمعاناة والمرض، ومات نتيجةَ تَساقُط الكتُب والمجلَّدات عليه من رُفوف مكتبته[10]، وكانت وفاتُه في البصرة عامَ: 255هـ.

المبحث الأول

إسهامات العلماء المسلمين في دراسة الأديان

يُعَدُّ القرآنُ الكريمُ أوَّلَ كتابٍ يَتناول الأدْيانَ بشيءٍ من التفصيل؛ فقد تحدَّث عن العقائد والمِلَل والنِّحَل والمذاهب على اختلافها، وقد عرَض بكل دقَّة لهذه العقائد والمذاهب، وناقَشَ بُطلانها وزَيْفها، وقارَن بينَها وبينَ الدِّين الصحيح الذي أرسَل اللهُ تعالى به الرُّسُل والأنبياء عليهم السلام[11].

وقد اعْتَنى القرآن الكريم بأهْل الكتاب عنايةً كبيرةً، وبدا ذلك واضحًا في حديث القرآن الكريم المفصَّل عن اليهود والنصارى، فناقَش مقالاتهم ومذاهبهم واعتقاداتهم، ولم يُعالجها بشكلٍ مستعجلٍ، بل أفاضَ في ذِكْرها والكَشْف عن خَباياها وأبْعادها، ومثال ذلك حديثُ القرآن الكريم عن بَني إسْرائيل الذي جاء من أكثَر المسائل التي عرَض لها بعد العقائد[12].

ومما لا شكَّ فيه أن حديث القرآن الكريم المستفيض عن أهْل الكتاب وعقائدهم، والأدْيان السابقة للإسْلام حفَّزَ عقولَ علماء المسلمين، ودفَعَهم لرَصْدها والاهْتِمام بها، ونتَجَ عن ذلك نشأةُ العلم المسَمَّى "بعلم مقارَنة الأدْيان"، فاجتهَدَ العلماءُ في وضْع أُصول هذا العلم، ومناهج بحثه، وقواعد

---

[9] فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ، مكتبة الأنجلو المصرية، 2005 م، ص32.

[10] المقاييس البلاغية عند الجاحظ المرجع السابق، ص33.

[11] الإمام أبو حامد محمَّد بن محمَّد الغزالي، الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل للغزالي، دار الهداية، تقديم وتحقيق وتعليق: د. محمد الشرقاوي، القاهرة، ط2، 1406هـ-1986م، ص18.

[12] الرد الجميل، المصدر السابق، ص19.

ISSN : 2410-1818

درسه[13].

فقد كان للمسلمين جهودٌ كبيرةٌ وواضحةٌ في علم مقارَنة الأدْيان، فهُم أوَّلُ مَن شرَع في التدوين في الأدْيان والعقائد؛ وذلك في منتصَف القرن الثاني الهجري[14].

ويُعَدُّ (النُّوبَخْتي، ت: 202هـ) أوَّلَ مَن كتَب في علم مقارَنة الأدْيان، وقد أطلَق على كتابه اسم "الآراء والديانات"، وجاء من بعدِه المسعودي (ت: 346هـ) الذي قام بتأليف كتابَين في الديانات وهما: "المسائل والعِلَل في المذاهب والمِلَل"، وكتاب "سر الحياة"، ثم أبو الحسن العامري (ت: 381هـ) الذي ألَّفَ كتابَه المسمَّى "مناقب الإسلام"[15].

أدرك علماءُ المسلمين قيمةَ التأليف في علم مقارَنة الأدْيان منذ وقت مُبَكِّر؛ إذ اشتَهَر عددٌ من المؤلِّفين في هذا المجال ومن أبرزهم:

1- واصل بن عطاء (ت: 131هـ)، وكتابه "ألف مسألة في الرد على المانويَّة"[16].

2- محمَّد بن محمَّد الهُذيل العلَّاف (ت: 235هـ)، وكتابه "الرد على أهل الأديان"[17].

3- أبو عُثمان عَمْرو بن بَحْر المعروف بالجاحظ (ت: 255هـ)، وكتابه "الرد على النصارى".

4- أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشْعَري (ت: 324هـ)، وكتابه "جمل المقالات".

5- أبو بكر الباقِلَّاني (ت: 403 هـ)، وكتابه "التمهيد".

6- أبو الرَّيحان البيروني (ت: 425 هـ)، وكتابه: "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة".

---

[13] د. محمَّد عبد الله الشرقاوي، في مقارنة الأديان بحوث ودراسات، مكتبة الزهراء، بيروت، القاهرة، ط2، 1410هـ-1990م، ص5.

[14] أبو عبد الله محمَّد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003، (3 / 776).

[15] عامر علي الرجوب، التجديد في علم مقارنة الأديان في العصر الحديث: دراسة تحليلية، أُطروحة دكتوراه، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن، 2017م، ص29.

[16] أحمد بن يحيى المرتضى، المنبه والأمل في شرح كتاب الملل والنِّحَل، اعتنى بتصحيحه: توما أرنولد، دائرة المعارف، حيدر آباد، 1316هـ، ص 21.

[17] محمَّد بن أبي يعقوب الوراق، الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، د. ت، (5 / 204).

ISSN : 2410-1818

وغيرهم الكثير من العلماء الذين قاموا بالتأليف في علم مقارَنة الأدْيان، بالإضافة إلى الكثير من المؤلَّفات التي يصعُب ذِكرُها في هذا المقام، والباحث في كتُب ومؤلَّفات علم الأديان السابقة يُلاحِظ ما يلي[18]:

- كان علماءُ المعتزلة أوَّلَ مَن خاض في علم مقارَنة الأديان، تَبِعَهم بعد ذلك بعضُ الفلاسفة.
- لم تقتصِرْ دراسة المِلَل والنِّحَل على المتكلِّمين والفلاسفة، إنما شارَكَهم المؤرِّخون كالمسعودي والبيروني واليَعقوبي والمَقْريزي، وجاء في كتُبهم معلوماتٌ مهمَّةٌ عن بعض الأديان وتطوُّرها.
- وظَّف علماء المسلمين في دراستهم لمقارَنة الأدْيان ألفاظًا أُخرى، ولم يَذْكُروا مصطلَحَ "المقارَنة" وهذه الألفاظ هي: "المِلَل والنِّحَل"، و"الأهواء والمِلَل والنِّحَل"، و"الفَرْق بين الفِرَق".

وبعد كلِّ هذه الجهود من علماء المسلمين، ظهَرَت حالةٌ من الركود في الاشتغال بعلم مقارَنة الأديان، فتراجَعَ علماءُ المسلمين في هذا العلم، وبدأ علماءُ الغرب الاشتغالَ في علم الأديان، وقاموا بتَبَنِّي هذا العلم، وأعلنوا نسبتَه إليهم، وهذا يعني أن علمَ مقارَنة الأديان دخَل عهدًا جديدًا[19].

المبحث الثاني

جهود الجاحظ في دراسة الأديان

شغَلَ تاريخُ الأديان ووصفُها مساحةً واسعةً من فِكْر المسلمين، ووضَعوا لذلك أُسسًا وأُصولًا، أو قواعد منهجيَّة، تميَّزت بالحَيْدة والنَّزاهة، حيث أصَّل علماءُ الإسْلام هذا المنهجَ، ثم طبَّقوه بموضوعيَّة على أديان العالَم المختلفة، فكان لهم شرفُ كتابة تاريخ الأدْيان في الفِكر الإنساني كله، قبلَ أُوروبا بأكثَرَ من عَشَرة قرون، وكان العالِمُ منهم يكتُب في الجدل والنقد كتابًا، ثم يكتُب في التاريخ والوصْف كتابًا آخَرَ، ومن هؤلاء العلماء الذين كان له دورٌ في علم الأديان الجاحظُ الذي استخدَم في كتاباته أهمَّ طرائق الإقْحام الجَدَلي، ويُمكنُنا تحديدُ طرائق الإقْحام في المنهج الجَدَلي التي استخدَمَها الجاحظُ بالطرُق الآتية:

1 - الطريقة الأولى: السَّبْر والتقسيم: وقد استخدَم الجاحظُ هذه الطريقةَ في جَدَله مع النصارى حولَ أُلوهيَّة المسيح، فقال لهم: "لا يَخْلو المسيحُ إما أن يكون إنسانًا بلا إلهٍ، أو إلهًا بلا إنسانٍ، أو إلهًا

---

[18] صـــلاح محمود محمود الباجوري، علم مقارنة الأديان بين التأصـــيل ومعوقات التجديد: مجلة كلية الدراســـات الإسلامية، العدد السادس والثلاثون، 1440هـ-2019م، ص574.

[19] – أحمد شلبي، اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، ط8، 1988م ، ص29-30.

ISSN : 2410-1818

وإنسانًا...."[20] وتَبدو أهميَّةُ هذه الطريقة في الجَدل مع المخالفين وحِرصهم على استخدامها في ذلك عندما تعلَم أن الجاحظَ لم يتعرَّض في رسالته على النصارى لإبْطال التثليث النَّصْراني بالمنهج الجَدَلي إلَّا بهذا السؤال، قدِ اتَّبَعَ طريقةَ السَّبْر والتقسيم التي هي إحْدى طرائق القِسمة العقليَّة[21].

2 - طريقة تقسيم الكلام على الخصم: وقد استخدَم الجاحظُ طريقةَ تَقسيم الكلام على الخَصم في رسالته عند الحديث عن قضيَّة بُنوَّة عيسى -عليه السلام- على سبيل التكريم؛ فإنه قسَّم الكلامَ بأن قال: "إنه لا يَخْلو المولى في رفْع عَبده وإكْرامه من أحد أمرَين: إما أن يكون لا يقدِر على كَرامته إلا بهَوان نَفْسه، أو يكون على ذلك قادرًا مع وفاء العَظمة وتَمام البَهاء، وقد استخدَم الجاحظُ هذا النمَطَ في جَدَله مع الخُصوم في مواضعَ كثيرة، ومسائل عديدة.

3- طريقة التسليم الجَدَلي للخَصم: وقد استخدَم الجاحظُ هذه الطريقةَ في جِداله لخصومه من أصْحاب المِلَل الأُخرى بسؤال عن زَعْم أنَّ محمَّدًا"صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"كان مُنجِّمًا: "كيف يجوزُ أن يَصير إنسانٌ عالِمًا بالنُّجوم من غير أن يختلفَ إلى المنجِّمين، أو يَختلفوا إليه، أو يكون علمُ النجوم فاشيًا من أهل بلاده، أو يكون في أهْله واحدٌ معروفٌ به[22]، ويُلاحَظ مما سبَقَ أن الجاحظَ كان يَسترسِل مع الخَصم في الجَدَل، فيُحاول أنْ يُثبت خطأه استنادًا إلى الأصول التي يعتمدُ عليها الخَصمُ من تقرير عقيدَته، فيكون النقدُ أكثرَ تأثيرًا.

4- طريقة منهج عرض مقالات الخصم ونقدها: إنَّ من أوائل مَن وضَّح هذا المنهجَ في ثَرائه الجاحظَ؛ فقد بدأ رسالتَه في الردِّ على النصارى برَدِّ شُبُهات اليهود والنصارى على المسلمين، وقد أورَدَ بعضَ حُجَجهم في إثْبات عقائدهم، ومن ثَمَّ قام بعَرْض موجَز في الرد عليهم، ويَبْدو لنا أن هذا المنهج كان مَقصِده من الجاحظ، والذي يقرأ مقدِّمة الرسالة يقِف على هذا؛ حيث إنَّ الجاحظ بعد أن انتهى من عَرْض مقالات المخالفين، وسَوْق حُجَجهم، وإيراد شُبَههم حولَ الإسْلام أراد أن يُبيِّنَ للقارئ عقبَ ذلك بقوله: "وسنقولُ في جميع ما ورَدَ علينا من مسائلكم، وفيما لا يقَع إليكم من مسائلهم بالشواهد الظاهرة، والحُجَج القويَّة، والأدلَّة الاضْطِراريَّة، ثم نَسألهم بعد جوابنا إيَّاهم عن وُجوه يَعرِفون بها انتقاضَ قولهم، وانْتِثارَ مذهبهم، يتَّضِح أن الجاحظَ قصَدَ اتِّباعَ منهج العرض والنقد؛ وذلك لِما في هذا المنهج من تأثير في نفْس الباحث حتى يقنَع بأن الكاتب مُحايد في نَقْله عن الخُصوم[23].

---

[20] – محمَّد عبد الله الشرقاوي، المختار في الرد على النصارى مع دراسة تحليلية تقويمية لأبي عثمان عمرو بن بحر، الجاحظ، دار الجيل، مكتبة الزهراء، بيروت، جامعة القاهرة، ط1، 1411هـ-1991م، ص 58.

[21] د. مختار عطا الله، مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، دار الهداية للطباعة، القاهرة، ط1، 1436هـ، ص138.

[22] أبو عثمان الجاحظ، حجج النبوة، ص2، 37.

[23] المختار في الرد النصارى، مرجع سابق، ص58.

ISSN : 2410-1818

ولهذا تناوَلَ الجاحظُ في كتابه "الرد على النصارى" مجموعةً من الأفكار التي يَحمِلها النصارى، وهي عبارةٌ عن افْتِراءات، وادِّعاءات على الدين الإسلامي؛ إذ استطاعَ الجاحظُ مقارَنةَ هذه الافْتِراءات مع الأفكار التي يحمِلُها اليهود عن الإسْلام، وقد اشتَمَل كتابه "الرد على النصارى" على ثمانية موضوعات رئيسة، وهي: عبادة النصارى لسيدتنا مريم"عليها السلام"ادِّعاء اليهود بأن عُزَيرًا ابن اللّه، وادِّعاء النصرانيَّة أن المسيح ابن اللّه، أن اليهود جعَلوا للّه -سبحانه وتعالى- أبناء وزوجة، وأن القرآن الكريم من عند الرسول صلَّى اللّهُ عليه وسلَّمَ، وأنه استمَدَّ مادة القرآن من الأخبار المَلَفَّقة والروايات المضْطَرِبة، ومثال ذلك قصَّة كل من هامان وفرعون، وهاتان القصَّتان تَحملان أخبارًا مَغلوطة, سُخرية الجاحظ من تَسْمية النصارى بأسماء المسلمين كالحسن والحُسين، والعبَّاس والفَضل، أما فيما يتعلَّق بالبشارة لزكريا في ولادة يحيى؛ فقد زعَم النصارى بأن هناك أكثَرَ من واحد اسمُه "يحيى"، إن اللّه -سبحانه وتعالى- بعَثَ من النساء نَبيَّات، كما بعَث من الرجال أنبياءَ، إنكار النصارى معجزة سيدنا عيسى -عليه السلام- وهي الكلام في المهد، عدم اعتراف اليهود بمُعجزات النبي عيسى -عليه السلام- وسُخريتهم من مُعجزاته، عَداوة النصارى للإسْلام والمسلمين.

اعتمَدَ الجاحظُ أُسُسًا منهجيَّةً في دراسته لكلٍّ من الديانات (النصرانيَّة واليهوديَّة)، والرد عليها وهي كالآتي:

أوَّلًا: تهذيب وتقويم مسائل النصارى ضدَّ الإسْلام قبلَ عَرْضها؛ إذ يقول: "قد قُلْنا في جواباتهم وقَوَّمْنا مسائلهم بما لم يَكونوا ليَبْلغوه لأنْفُسهم؛ ليكون الدليلُ تامًّا، والجوابُ جامعًا"[24].

أي أن الجاحظ قام بتَنْقية كل مسألة من مسائل النصارى، وتَنْقيحها وتَحْسينها؛ بحيث يكون ردُّ الجاحظ على كل مسألة أثارها النصارى ردًّا تامًّا كاملًا من كل وجهٍ، فلا نقصَ فيه؛ ولهذا أورَدَ مسائلَهم وأدلَّتَهم كلَّها، ثم بعدَ ذلك أجابَ عن كل مسألةٍ ورَدَّ عليها، مثلًا ذكَرَ أدلَّتَهم وأقوالَهم؛ فقد قالوا: إن الدليلَ على أن كتابَنا باطلٌ، وأمرَنا فاسدٌ، أنَّنا ندَّعي عليهم ما لا يَعرفونه فيما بينَهم، ولا يَعرفونه من أسْلافهم، وردَّ عليهم، وهكذا أورَدَ كلَّ مسألةٍ، ثم ردَّ عليهم وجادَلَهم فيها.

ثانيًا: كان الجاحظُ يُجيب عن مسائل النصارى مسألةً مسألةً؛ وذلك لإلْزامِهم وإفْحامِهم فيقول: "ولْيَعلَمْ مَن قرأ هذا الكتابَ، وتدَبَّرَ هذا الجوابَ أنَّا لم نَغتَنِم عَجزَهم، ولم نَنتَهِز غِرَّتَهم، وإن الإدْلالَ بالحُجَّة، والثِّقة بالفَلَج والنُّصرة هو الذي دعانا إلى أن نُخبر عنهم بما ليس عندَهم، وألَّا نقولَ في مسألتهم بمعنًى لم يَنْتَهِ إليه مُنْتَهٍ، أو يُشير إليه مُشير، وألا يوردوا -فيما يَستَقبلون- على ضُعفائنا ومَن قَصُر نظرُه

[24] – محمد كاظم بدر الغزي، رسائل الجاحظ دراسة في شعريَّة النثر العربي، أُطروحة دكتوراه، جامعة البصرة، 1434هـ-2013م ، ص67.

ISSN : 2410-1818

منًّا شيئًا إلا والجوابُ قد سلف فيه، وألسنتهم قد أدْلَت به[25].

إن الجاحظَ تناوَلَ كلَّ مسألة من مسائل النصارى على حدةٍ، وهو بذلك يعمِد إلى هذا الأسلوب لإسْكات النصارى بالحُجَج والأدلَّة المنطقيَّة والبرهانيَّة؛ فقد امتلَكَ الجاحظُ قوَّةَ الحُجَّة في الإقْناع والتأثير والإفْحام.

ثالثًا: توجيه الجاحظ أسئلةً للنصارى، وتتسمُ هذه الأسئلة بأنها مُقنعة وحاسمة وقاطعة، لا يمكنُ دَحْضُها أو إنْكارُها، وطبيعةُ هذه الأسئلة هي عن معتَقَدات ومذاهب وديانة النصارى قائلًا: "وسنسألُهم -إن شاء اللّه- ونُجيب عنهم، ونَستقصي لهم في جواباتهم كما سألْنا لهم أنْفُسَنا، واستَقْصَيْنا لهم في مسائلهم"[26].

مثلًا سؤالهم: هل يَخْلو المسيحُ أن يكون إنسانًا بلا إلهٍ، أو إلهًا بلا إنسانٍ، أو أن يكون إلهًا وإنسانًا؟

فإن زعَموا أنه كان إلهًا بلا إنسانٍ، قُلْنا لهم: فهو الذي كان صغيرًا فشبَّ والْتَحى، والذي كان يأكُل ويشرَب ويَنْجو ويَبول، وقُتِل بزعمكم وصُلِب، وولدَتْه مريمُ وأرضعَتْه، أم غَيره هو الذي كان يأكُل ويشرَب على ما وَصَفْنا؟

فأيُّ شيءٍ معنى الإنسان إلا ما وصَفْنا وعدَّدْنا، وكيف يكون إلهًا بلا إنسانٍ وهو الموصوفُ بجميع صفات الإنسان؟ وليس القولُ في غَيره ممَّن صِفتُه كصِفته إلا كالقول فيه، كاشتمالها على غَيره.

وإنْ زَعَموا أنه لم ينقَلِب عن الإنسانيَّة، ولم يتحَوَّل عن جَوْهَر البشريَّة، ولكن لما كان اللَّاهوت فيه صار خالقًا سُمِّيَ إلهًا، قُلْنا لهم: خَبِّرونا عن اللَّاهوت أكان فيه وفي غَيره أم كان فيه دونَ غَيره؟

فإنْ زَعَموا أنه كان فيه وفي غَيره؛ فليس هو أوْلى بأن يكون خالقًا، ويَتَسَمَّى إلهًا من غَيره، وإنْ كان فيه دونَ غيره؛ فقد صار اللَّاهوت جسمًا[27].

رابعًا: كشفت الأسئلةُ التي واجَهَ بها الجاحظُ النصارى عن رغبته وحرصه الشديد على الدِّفاع عن الإسْلام والمسلمين؛ فقد كان هدفُ الجاحظ إظهارَ الحق والاعترافَ به أمامَ أفكار النصارى المحرَّفة؛ وذلك بمناقَشَته تلك الأفكار والمعتقَدات، معتمِدًا في هذه المنهجيَّة على الجَدَل من خلال طريقة

---

[25] رسائل الجاحظ ، ص67.

[26] المصدر السابق، ص67.

[27] المختار في الرد على النصارى، مرجع سابق، ص89، 90.

ISSN : 2410-1818

السؤال والجواب؛ ولأنه على يقينٍ بأن هذه الطريقة تَكشف الحقيقةَ، وتَدحَض آراءَ الخُصوم.

مثلًا قوله: ولو جهدتَ بكل جُهدكَ، وجمعتَ كلَّ عقلكَ أن تَفهمَ قولَهم في المسيح، لما قَدَرتَ عليه، حتى تعرفَ به حدَّ النصرانية، وخاصَّة قولهم في الإلهيَّة، وكيف تَقدرُ على ذلك وأنتَ لو خلَوْتَ ونَصراني نسطوري فسألتَه عن قولهم في المسيح لقال قولًا، ثم إنْ خلَوْتَ بأخيه لأُمِّه وأبيه وهو نسطوري مثله فسألتَه عن قولهم في المسيح لأتاكَ بخلاف أخيه وصِنوه، وكذلك جميعُ الملكانيَّة واليعقوبيَّة؛ ولذلك صِرْنا لا نعقِلُ حقيقةَ النصرانية، كما نعرِف جميعَ الأدْيان[28].

خامسًا: برزَت مقدرةُ الجاحظ وكفايتُه في القيام بهذه المهمَّة الشاقَّة، والتي لا يمكنُ أن يقومَ بها إلا العالِمُ العارفُ؛ إذ يقول: "سنقول في جميع ما ورد علينا من مسائلكم، وفيما لا يقَع إليكم من مسائلهم بالشواهد الظاهرة، والحُجَج القويَّة، والأدلَّة الاضْطِراريَّة، ثم نَسألهم بعد جوابنا إيَّاهم عن وجوهٍ يَعرِفون بها انتقاضَ قولهم وانْتثارَ مذهبهم، وتَهافُتَ دينهم"[29].

وقد كشَفَت قُدرةُ الجاحظ في الرد على النصارى، وإبْطال دَعواتهم عن اطِّلاعه على عِلم الأدْيان، ومعرفته الواسعة والشاملة لتفاصيل عقيدة وفِكْر النصارى.

سادسًا: اعتماد الجاحظ على منهج القياس في تَفْنيد مزاعم النصارى، ومثال ذلك عدمُ معرفة المجوس، والخرز والهند، والتُّرْك بكلام النبي عيسى في المهد، فيُجيب الجاحظ النصارى، ويَقيس على ذلك فيقول: ولو كانت المجوس تُقِرُّ لعيسى بعلامة واحدة وبأدْنى أُعجوبة؛ لكان لكم أن تُنكروا علينا بهم، وتَستعينوا بإنْكارهم، فأما وحالُ عيسى في جميع أمره عند المجوس كحال زرادشت[30] في جميع أمره عند النصارى...، وأما قولكم: فكيف لم تَعرِف الهند والخزر والتُّرك ذلك؟ فمتى أقَرَّت الهند لموسى بأُعجوبة واحدة فضلًا عن عيسى؟ ومتى أقرَّت لنبيٍّ بآيةٍ ورَوَت له سيرةً حتى تَستشهدوا الهند على كلام عيسى؟"[31]

---

[28] المختار ، لمصدر السابق، ص68.

[29] رسائل الجاحظ، مصدر سابق، ص13.

[30] زردشت بن يورشب الذي ظهر في زمان كشتاسب بن لهراسب الملك، وأبوه كان من أذربيجان وأمه من الري واسمها دغدوية، المؤلف: محمد بن عبد الكريم الشهرستاني أبو الفتح، الملل والنحل ، دار الكتب العلمية،1413، (1 / 281)

[31] رسالة الرد على النصارى، ص267.

ISSN : 2410-1818

فقد استخدَم الجاحظُ في تَفْنيد دعوى النصارى البراهينَ المنطقيَّةَ، ففي رَدِّه على عدم اعتراف الهند بكلام النبي عيسى -عليه السلام- في المهد جاءت إجابةُ الجاحظ شافيةً ووافيةً ومُقنعةً؛ فقد كان رَدُّه كالآتي:

- عدم إيمان الهند بوجود الرسائل السماوية.
- لم تذكُرْ كتُب الهند سيرةَ أحد الأنبياء، كذلك لم تذكُر معجزات النبي موسى عليه السلام، لذلك هي لا تذكُر النبي عيسى -عليه السلام- ولا تَتناوَل كلامَه في المهد.

سابعًا: عدم اكتفاء الجاحظ بالقياس، بل الاعتماد أيضًا على الآيات القرآنيَّة التي تؤكِّد صحَّةَ حُجَجه، وتُبَيِّن عدمَ قُدرة الكتب المحرَّفة كالإنجيل على تَوْضيح الحقائق كاملةً، وهو دليلٌ على قُصورها وضَعْفها، ومثال ذلك: ادِّعاءُ النصارى ببُنوَّة عيسى -عليه السلام- فيقول: "وسألتم إذا كان الله تعالى قد اتخَذ عبدًا من عِباده خليلًا، فهل يجوزُ أن يتخذَ عبدًا من عباده ولدًا؟ يُريد إظهارَ رحمته ومحبَّته إيَّاه، وحُسن تربيته وتأديبه له"[32].

كما استَشهَد بالأدلة القرآنيَّة في المسألة ذاتها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ ﴾[33]، أيضا قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ ﴾[34].

ثامنًا: عند إيراد الجاحظ لقضيَّة أو مسألة مهمَّة؛ فإنه يُسهِب في تفاصيلها وتحليلها، ومثال ذلك مسألة "لماذا كانت النصارى أحَبَّ إلى عوام المسلمين من المجوس، وأسلَمَ صدرًا عندهم من اليهود، وأقرَبَ مودةً، وأقلَّ غائلةً، وأصغَرَ كفرًا، وأهوَنَ عذابًا؟"[35] يُقدم الجاحظُ أسبابًا كثيرةً ومتعددةً ومن أهمها: الجوارُ، فاليهود كانوا جيرانَ المسلمين في يثربَ، والقربُ في الجوار يولِّدُ البُغضَ والحقدَ والعداوةَ، أما النصارى فقد كانت ديارُهم بعيدةً عن المسلمين، وهذا أحدُ الأسباب التي دفَعَت المسلمين إلى حُب النصارى، كما يذكُر أسبابًا أُخرى وهي هجرةُ المسلمين إلى الحبشة، وأيضًا الآية القرآنيَّة التي يُذكَر فيها النصارى يقول تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ

---

[32] رسالة الرد على النصارى،المصدر السابق، ص269.

[33] سورة مريم، الآية 35.

[34] سورة المؤمنون، الآية 91.

[35] المختار في الرد على النصارى دراسة تحليلية تقويمية، ص16.

ISSN : 2410-1818

أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ [36].

ثم يوضِّح الجاحظ أن النصارى في الآية السابقة هُم ضربُ بَحيرَا ، أو ضربُ الرُّهْبان الذين كان يَخدُمهم سَلْمان "رضي الله عنه"[37]، ويذكُر الأسباب الأُخرى وهي أن النصرانيَّةَ كانت منتشرةً بين ملوك العرب وقبائلها عدا قبيلة مُضَر، ومن الأسباب أيضًا أن المسلمين رأَوْا في النصارى ملكًا قائمًا، وأن فيهم عربًا كثيرةً، وأن بنات الروم ولدْنَ لملوك الإسْلام، وأن في النصارى أطبَّاء ومتكلِّمين ومنجِّمين، وصاروا عندهم عُقلاء وفلاسفة حُكماء، ولم يرَوْا ذلك في اليهود[38].

بعد إسْهاب الجاحظ في الحديث عن الأسباب التي ليَّنَت قلوبَ عَوام المسلمين على النصارى، انطلَقَ يوضِّحُ مدى خُطورة النصارى في نَشْر الإلحاد والزَّنْدَقة، وإثارة الشُّبُهات؛ إذ يقول: "ودينهم - يرحمك الله- يُضاهي الزَّنْدَقة، ويُناسب في بعض وجوهه قولَ الدهرية[39]، وهُم من أسباب كل حيرة وشُبهة"[40].

وفي تناول الجاحظ لقضية خطورة النصارى بيَّنَ كيدَهم للإسْلام، كما وضَّح خطرَهم المباشرَ في اتِّباعهم للحديث المتناقِض ظاهرًا، والضعيف بالإسناد، والمتشابه من آيِ الكتاب، وأنهم كانوا السبب في عبور الكثير من المذاهب الفاسدة والملحدة، ودخولها إلى البيئة الإسلاميَّة[41].

تاسعًا: سلَك الجاحظُ في الرد على الشُّبُهات والأباطيل التي دسَّها أعداءُ الإسْلام من النصارى واليهود المنهجَ الكلاميَّ، ولخطورة هذه الشُّبُهات على الدين الإسْلامي كان لِزامًا على الجاحظ أن يواجِهَها بأُسلوب ملائم مُستخدِمًا الاستدلالَ النقليَّ والمنهجَ العقليَّ، كما استخدَم الجاحظُ المصطلحات الكلاميَّة المعروفة، واستخدامه للطرق والمقاييس الكلاميَّة معَ عدم موافقته لمتكلِّمي المعتزِلة موافَقةً كاملةً.

---

[36] سورة المائدة، الآية 82.

[37] المختار في الرد على النصارى، المرجع السابق، ص17-18.

[38] المختار في الرد على النصارى،المصدر السابق، ص18.

[39] الدهريون: هم الذين يَنسبون الوقائع والحوادث إلى الدهر، ولا ينسبونها إلى الله.

[40] المختار في الرد على النصارى،المصدر السابق، ص19.

[41] المختار في الرد على النصارى، مرجع سابق ص 21.

ISSN : 2410-1818

مثلًا سألتم عن قولهم: إذا كان -تعالى- قد اتخَذَ عبدًا من عباده خَليلًا، فهل يجوزُ أن يتخذَ عبدًا من عباده ولَدًا؟ يُريد بذلك إظهارَ رحمته له، ومحبَّته إيَّاه، وحُسن تَربيته وتأديبه له، ولُطف مَنزلته منه، كما سمَّى عبدًا من عباده خليلًا، وهو يُريد تَشريفَه وتَعظيمَه، والدَّلالة على خاصِّ حاله عندَه.

وقد رأيتُ من المتكلِّمين مَن يُجيز ذلك ولا يُنكره، إذا كان ذلك على التَّبنِّي والتربية والإبانة له بلُطف المنزلة، والاختصاص له بالمرحَمة والمحبَّة، لا على جهة الولادة، واتخاذ الصاحبة. ويقول: ليس في القياس فرقٌ بينَ اتخاذ الولد على التبَنِّي والتربية، وبين اتخاذ الخليل على الولاية والمحبَّة، وزعم أن اللّه -تعالى- يحكُم في الأسْماء بما أحبَّ، كما أن له أن يحكُم في المعاني بما أحبَّ.

وأما نحن؛ فإنَّا لا نُجيز أن يكون للّه ولدٌ، لا من جهة الوِلادة، ولا من جهة التَّبنِّي، ونَرى أن تجويزَ ذلك جهلٌ عظيمٌ، وإثمٌ كبيرٌ؛ لأنه لو جاز أن يكون أبًا ليعقوب لجازَ أن يكون جَدًّا ليوسُف، ولو جاز أن يكون جَدًّا وأبًا، وكان ذلك لا يوجب نَسَبًا، ولا يوهِم مشاكَلة في بعض الوجوه، ولا يَنقُص من عِظَم، ولا يَحُطُّ من بَهاء؛ لجاز أيضًا أن يكون عمًّا وخالًا؛ لأنه إنْ جاز أن يُسمِّيَه من أجْل المرحَمة والمحبَّة والتأديب أبًا، جاز أن يُسمِّيَه آخَر من جهة التعظيم والتفضيل والتسويد أخًا، ولجاز أن يجدَ له صاحبًا وصَديقًا؛ وهذا ما لا يُجوِّزُه إلَّا مَن لا يَعرِف عظَمةَ اللّه، وصِغَر قَدْر الإنسان، وليس بحكيمٍ مَنِ ابتذَلَ نفْسَه في تَوْقير عَبْده، ووضَعَ من قَدْره في التوفر على غيره، وليس من الحكمة أن تُحسِنَ إلى عبدِكَ بأن تُسيءَ إلى نفْسِكَ، وتأتي من الفَضل ما لا يَجِب بتَضْييع ما يَجِب، وكثيرُ الحمد لا يقومُ بقليلِ الذمِّ. ولم يَحمَدِ اللّهَ ولم يَعرِفْ إلهيَّتَه مَن جوَّز عليه صفاتِ البشر، ومناسبةَ الخَلْق، ومقارَبةَ العِباد[42].

المبحث الثالث

أثر الجاحظ في العلماء من بعده

ومما سبَقَ يتضحُ أن الجاحظَ كان من أوائل العلماء في مقارَنة الأديان الذين بَيَّنوا صُعوبةَ وتعقيدَ العقيدة "النصرانيَّة" يَلفِت الجاحظُ الأذْهانَ إلى مسألةٍ في غاية الخُطورة، ألَا وهي غموضُ قولهم من المسيح عليه السلام، وتعَقُّده، وتدابُره، وتَعاقُده، وكان الجاحظ أوَّلَ مَن ناقَشَ هذه النقطةَ، وأخَذَها عنه علماءُ المسلمين[43]، ونَجِدُ أن القارئَ تجاهَ ما كتَبَه الجاحظُ في عِلم الأدْيان يجِدُ تأثُّرَ بعضِ العلماء بكتاباته التي اعتمَدَت على المنهج الجَدَلي في الإقْحام، ومن أبرَزِ مَن تأثَّر بالجاحظ:

---

[42] المختار في الرد على النصارى، مرجع سابق ص72-74.

[43] المختار في الرد على النصارى ، مرجع سابق ، ص22.

ISSN : 2410-1818

أبو العبَّاس ،عبدالله بن محمد الأنباري ،[44]الذي ناقش في كتابه مسألة: أُلوهيَّة عيسى -عليه السلام- وهي المسألةُ التي توقَّف عندَها الجاحظُ من قبلُ، واتَّبعَ إحْدى طرُق القِسمة العقليَّة، وهي طريقةُ السَّبر والتقسيم؛ وذلك لإبْطال التثليث النَّصراني بالاعتماد على المنهج الجَدَلي[45].

ومنهم أبو عيسى الوراق، محمد الوراق[46]؛ ألَّفَ العديدَ من الكتب التي تتحدَّث عن النصارى وهي: كتاب الرد على النصارى الكبير، كتاب الرد على النصارى الأوسط، كتاب الرد على النصارى الأصغر[47].

وقد اعتمَدَ الورَّاق في رُدودِه على المعتَقَدات المنحرِفة عند النصارى، وعلى الحُجَج المنطقيَّة والعقليَّة، ولم يعتمِدْ على الحُجَج النَّقليَّة من القرآن الكريم أو من كتُب النصارى المقدَّسة[48].

ومن العلماء الحسن بن أيوب (ت378 هـ) وهو من المتكلمين وقد اعتنق الإسلام بعدما أيقن بعدم قناعته بالدين النصراني، وقد ألف "كتابا إلى أخيه علي بن أيوب في الرد على النصارى وتبين فساد مقالتهم وتثبيت النبوة" وقد خصص جزءا من كتابه لإثبات عدم ألوهية المسيح وأنه عبد ونبي لا غير، وقد اعتمد في إثبات ذلك على شواهد من التوراة والمزامير وأشعيا وأناجيل متى ولوقا وأعمال الرسل[49].

ومن العلماء أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي المعروف بالكَعْبي (ت: 319 هـ) قد تعرَّض إلى العقيدة النصرانيَّة في كل من كتابَيْه "المقالات"، و"أوائل الأدلة[50]"، ومن المسائل التي استعرَضَها البَلْخي في كتُبه: الخلاف بين المسلمين والنصارى حولَ التثليث والتشبيه، وإنْكار نُبوَّة النَّبي محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما وضَّح فسادَ عقيدة التثليث باستخدام الحُجَج المنطقيَّة[51]، وهذه

---

(44) أبو العبَّاس ،عبدالله بن محمد الأنباري الملقب بالناشـــي من كبار المتكلمين ، وأعيان الشـــعراء ، ورءوس المنطق (ت: 293هـ)، محمد بن أحمد ، شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء،مؤسسة الرسالة ،1402،ص41.

(45) مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص138.

(46) أبو عيســى الوراق، محمد بن هارون الوراق البغدادي (ت 247 هـــ / 861 م بالرملة – العراق) من المتكلمين النظارين ، مروج الذهب ، المكتبة العصرية، مرجع سابق (4/ 23).

(47) عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/العاشر، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، 1986م، ص141.

(48) الفكر الإسلامي المرجع السابق، ص146.

(49) الفكر الإسلامي ،المرجع السابق،ص 148- 149

(50) الفكر الإسلامي، المرجع السابق، ص146.

(51) الفكر الإسلامي، المرجع السابق، ص146.

ISSN : 2410-1818

القضايا تَناوَلَها الجاحظُ في كتابه الرد على النصارى مستخدِمًا الحُجَجَ النَّقْليَّة والمنطقيَّة أيضًا.

وأيضًا من الذين تأثَّروا بالجاحظ في كتابته أبو الحسن علي بن سهل ربّن الطبري ،[52] وقد استخدَم سلوكَ سبيل الحوار والمناظَرة والنقد لعقائد النصارى، فقال: هناك اختلافٌ كثيرٌ عند فِرَقهم في شخصيَّة عيسى -عليه السلام- ، بينَ بَشريَّته، وأُلوهيَّته، فبعض الفِرَق النصرانيَّة وصفَتْه بالصفات الإنسانيَّة، ويُسمُّونه"ناسوتًا"ينما هناك من الفِرَق النصرانيَّة، مَن وصفَتْه بالصفات الإلهيَّة، ويُسمُّونه "لاهوتاً" ومنهم مَن يقول: اتَّحَد اللَّاهوتُ بالناسوت، ولا يعني ذلك أن النصارى يؤمنون بأن المسيح -عليه السلام- مجرَّد نبيٍّ، فإنَّ جميعَ فِرَقهم يؤمنون بأُلوهيته، من الجانب الآخَر هُم مختلِفون في ماهيَّة شخصيَّته، وأيضًا اعتَمَد ابنُ رَبَّن الطبري على المصادر الكلاميَّة والفلسفيَّة، ويَظهَر ذلك من خلال مواقفه النَّقديَّة التي واجَهَ بها خصومَه[53].

وأيضًا من الذين تأثَّروا بالجاحظ في كتابته البيروني[54]يُعَدُّ كتابُ أبي الرَّيْحان البيروني المسمَّى "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" أهَم وأوسَع كتاب وَصَلَنا في وَصْف عقائد الهندوكيِّين، وشرائعهم وعاداتهم في أنْكِحَتهم وأطْعِمَتهم وأعْيادِهم، ونُظُم حياتهم، وخصائص لُغتهم، وقد أراد البيروني بهذا الكتاب أن يُطوِّر معرفةَ المسلمين ببقيَّة الأدْيان، فقامت دراستُه على عملٍ ميدانيٍّ هو المعايَنةُ والحكايةُ والمقارَنةُ[55].

وأيضًا من الذين تأثَّروا بالجاحظ في كتابته أحمد بن عبد الصمد بن أبي عُبَيدة الخَزْرَجي، يُكَنَّى بأبي جعفر (519-582هـ/1128-1187م) تذكُرُ المصادرُ أن نسبَه يَنتهي إلى سعد بن عُبادة الخَزْرَجي الصحابي الجليل، وُلِد ابن أبي عُبيدة بقُرطبة، ونشأ نشأةً علميَّةً منذ صِغَره، تتلمَذَ على القاضي أبي بكر بن العربي، والشيخ ابن أبي الخصال الغافقي، فاتَّسَعت معارفُه، وغَزُرَ عِلمُه، حتى صار عالِمًا جليلًا، وصار له مجالسُ علميَّةٌ يَلتَقي فيها بالطلاب، وله مؤلَّفات عديدة، ومتنوِّعة في فروع

---

(52) أبو الحسن علي بن سهل ربَّن الطبري ولد في مرو من أعمال طبرستان سنة 780م 164 هـ أو سنة 770م ـ 153 هـ وهو ينحدر من أسرة فارسية مسيحية ؛ لكنه اعتنق الإسلام على يد المعتصم ،موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي، عيون الانباء في طبقات الاطباء،دار مكتبة الحياة.

(53) علي بن رَبَّن الطبري، الرد على أصناف النصارى، مكتبة النافذة، ص٤٣.

(54) وهو أبو الرَّيْحان محمَّد بن أحمد البيروني (362-440هـ/973-1048م)، وُلِد في ضاحية كانت عاصمة خُوارَزم في أُوزبَكِسْتان، كان رحَّالةً وفيلسوفًا وفلكيًّا ومؤرِّخًا ومُترجمًا مقالات الهند، وُصِف بأنه من بين أعظَم العقول التي عَرَفتها الثقافة الإسلاميَّة، وأُطلِق عليه لقبُ "بطليموس العرب ،خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، 2002م ، (81/2).

(55) علي أمليل: في شرعية الاختلاف، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1993م، ص30.

ISSN : 2410-1818

العلم والمعرفة، وقد ألَّف كتابَ "مقاطع الصُّلبان" إثْرَ المناظَرة التي جَرَت بينَه وبينَ أحد القِسِّيسين الإسبان، كانت أحداث هذه المناظَرة في الأندَلُس، في نهاية القرن السادس الهجري، وتحديدًا في طُلَيْطِلة التي كانت حصنَ الدولة الإسلامية الشمالي، وذلك بعد أن انتزَعَها ألفونس[56].

وقد تنوَّعت مصادرُ أبي عُبَيدة الخَزْرَجي في الرد على النصارى بما يَكشِف عن موسوعيَّته، وسَعة عَقله، وإحاطَته بفِكْرهم، ومن أهم المصادر التي اعتَمَد عليها: القرآن الكريم، والحديث الشريف، وخصوصًا كُتب النصارى واليهود التي يُقدِّسونها التي لجأ إليها لتوسيع معرفته بالفكر اليهودي والنصراني، وليُفيد من هذه الدراسة في جهوده الجدليَّة حتى تكون مُلزِمةً لخُصومه، إضافةً إلى مصادر علميَّة وفلسفيَّة مختلفة، مثل الفلسفة اليونانيَّة والهنديَّة وغيرها.[57]

[56] الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة ببير فونتان الشرقية، الجزائر، (1334هـ/1906م)، ص 61، أحمد بابا التُّنبُكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، ط2، 1329هـ، ص٥٠، عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، المكتبة العربية، دمشق، سوريا، (1376هـ/1957م)، ج1، ص274.

[57] خالد عبد الحليم السيوطي: الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس (ابن حزم–الخزرجي)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2001م، ص 108.

ISSN : 2410-1818

خاتمة

من خلال ما تقدَّم في هذه الدراسة نختَتِمُها بالوقوف على أهم النتائج التي توصَّل إليها البحثُ وهي:

- يُعَدُّ القرآن الكريم أوَّلَ مَن تحدَّثَ بشكل مُفصَّل عن الأديان والعقائد والمِلَل والنِّحَل، وكشَفَ مدى زَيْفها وبُطلانها.
- إن حديث القرآن الكريم المستفيض عن أهل الكتاب والعقائد والأديان كان الدافعَ لدى المسلمين في رَصْد هذه الأديان، ونُشوء علم مقارَنة الأديان، ووضْع أُصول هذا العلم وقواعده ومناهجه.
- كان النُّوبَخْتي (ت: 202هـ) أوَّلَ مَن كتَبَ في علم مقارَنة الأديان، وكتابه هو "الآراء والديانات".
- اجتمَعَت في الجاحظ صفاتُ دارس عِلم الأدْيان؛ فقد اعتَمَد على المصادر الأصليَّة؛ إذ استنَدَ على الكتاب المقدَّس في طَرْح آراء النصارى، واعتَمَد على القرآن الكريم في الرد على آراء النصارى المغلوطة.
- من مميِّزات منهج الجاحظ في الرد على النصارى تهذيبُ وتقويمُ مسائل النصارى ضدَّ الإسْلام قبلَ عَرْضها، إجابةُ الجاحظ على كل مسألةٍ من مسائل النصارى؛ وذلك لإفْحامهم وإلْزامهم الحُجَّةَ.
- اشتمَلَ كتابُ الجاحظ "الرد على النصارى" على ثماني مسائل أو قضايا من أبرزها : ادِّعاءُ النصرانيَّة أن المسيح هو ابنُ الله، عبادة النصارى لسيدتنا مريم، أن القرآن الكريم هو من عند النبي "صلى الله عليه وسلم ".
- من المناهج التي استخدَمَها الجاحظُ في الرد على النصارى منهجُ القياس، والذي لَعِبَ دورًا كبيرًا في تَفْنيد وإنْكار مزاعم النصارى.
- من أبرز العلماء الذين تأثَّروا بالجاحظ وأثاروا المسائلَ المتعلِّقةَ بمعتَقَدات النصارى المنحرِفة: أبو العبَّاس عبد الله بن محمَّد الأنْباري الناشئ الأكبَر، وأبو عيسى محمَّد بن هارون الورَّاق.

ISSN : 2410-1818

المصادر والمراجع

- أحمد بن علي الزاملي عسيري، إسهامات ابن القَيِّم في علم مقارنة الأديان دراسة تحليليَّة، مجلة التراث، المجلد (11)، العدد (3)، 2021م.
- أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإرْبلي، ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
- أحمد بن يحيى المرتضى، المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنِّحَل، اعتنى بتصحيحه: توما أرنولد، دائرة المعارف، حيدر آباد، 1316هـ.
- أحمد شلبي، اليهودية، مكتبة النهضة المصرية، ط8، 1988م.
- أماني رضا، يسرا شادمان، دراسة آراء الجاحظ حول الشعر ونقده، دراسات النقد والترجمة في اللغة العربية وآدابها، العدد (3)، 2012م.
- أمين انقيرة، نماذج من إسهامات علماء المغرب الأقصى في التصنيف في علم الأديان، مجلة التراث، المجلد (11)، العدد (3) 2021م.
- أمين حجي محمد أمين الدوسكي، مقارنة بين مناهج علماء المسلمين القدماء والمعاصرين في دراسة الأديان في ضوء إشكالية الموضوعية: الفيلسوف أبو الحسن العامري نموذجًا من القدماء، والأستاذ أحمد شلبي من المعاصرين، شبكة الألوكة، 1439هـ-2017م.
- الجاحظ، مع الجاحظ في رسالة الرد على النصارى، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، د.ت.
- خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 2002م.
- سيكو توري، ابتكارات علماء المسلمين في علم مقارنة الأديان في التراث الإسلامي: الأسبقية وضوح الرؤية والموضوعية، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، الإمارات العربية المتحدة، المجلد (12)، العدد (11)، 2012م.
- صلاح محمود محمود الباجوري، علم مقارنة الأديان بين التأصيل ومعوقات التجديد، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، العدد السادس والثلاثون، 1440هـ-2019م.
- عامر علي الرجوب، التجديد في علم مقارنة الأديان في العصر الحديث: دراسة تحليلية، أُطروحة دكتوراه، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن، 2017م.
- عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع/العاشر، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، 1986م.

ISSN : 2410-1818

- علي أمليل: في شرعية الاختلاف، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1993م.
- علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت: 346هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرحه وقدَّم له: د. مفيد محمَّد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- علي بن رَبَّن الطبري، الرد على أصناف النصارى، مكتبة النافذة.
- علي بوملحم، المناحي الفلسفية عند الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 2004م.
- أبو عثمان الجاحظ، حجج النبوة ،(ت.د.).
- فاطمة التيس، إسهامات علماء الإسلام في تأسيس علم مقارنة الأديان: أبو الحسن العامري (ت: 381 ه) أُنموذجًا، مجلة التراث، المجلد (11)، العدد (3) 2021م، ص: 128 – 152.
- فوزي السيد عبد ربه، المقاييس البلاغية عند الجاحظ، مكتبة الأنجلو المصرية، 2005م.
- فوزي عطوي، الجاحظ دائرة معارف عصره، دار الفكر العربي، بيروت، ط2، 1998م.
- محمَّد بن أبي يعقوب الورَّاق، الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، د.ت.
- محمَّد بن أحمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م.
- محمد بن أحمد ، شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء،مؤسسة الرسالة ،1402.
- محمَّد بن محمَّد الغزالي أبو حامد، الرد الجميل لإلهيَّة عيسى بصريح الإنجيل للغزالي، دار الهداية، تقديم وتحقيق وتعليق: د. محمَّد الشرقاوي، القاهرة، ط2، 1406هـ-1986م.
- محمَّد عبد اللّه الشرقاوي، المختار في الرد على النصارى مع دراسة تحليلية تقويمية لأبي عثمان عمرو بن بحر، الجاحظ، دار الجيل، مكتبة الزهراء، بيروت، جامعة القاهرة، ط1، 1411هـ-1991م.
- محمد عبد اللّه الشرقاوي، في مقارنة الأديان بحوث ودراسات، مكتبة الزهراء، بيروت، القاهرة، ط 2، 1410هـ-1990م.
- محمد بن عبد الكريم الشهرستاني أبو الفتح، الملل والنحل ، دار الكتب العلمية، 1413.
- محمد كاظم بدر الغزي، رسائل الجاحظ دراسة في شعريَّة النثر العربي، أُطروحة دكتوراه، جامعة البصرة، 1434هـ-2013م.

ISSN : 2410-1818

- مختار عطا الله، مقارنة الأديان في الفكر الإسلامي، دار الهداية للطباعة، القاهرة، ط1، 1436هـ-2015م.
- موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار مكتبة الحياة.
- ياقوت أبو عبد الله شهاب الدين عبد الله الرومي الحموي (ت: 626هـ)، معجم الأدباء، تحقيق : د. أحمد فريد رفاعي، مطبعة المأمون ، القاهرة، د.ت.
- يوسف الشاطر، إسهامات علماء المسلمين في تأسيس علم مقارنة الأديان: أبو الريحان البيروني أُنموذجًا، مجلة الإحياء، المجلد (19)، العدد (22)، 2019م.